الكاتب: أ/ عبد العزيز احديبي
جامعة ابن زهر -اكادير

عنوان المقال: **يـهـود درعـــة الوسطى: تاريخ استقرار غامض، وادوار اقتصادية مهمة بالواحات**

البريد الالكتروني: delaziz.ahdibi@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/02/28 **تاريخ القبول:** 19/03/2020 **تاريخ النشر:** 2020/03/31

يـهـود درعـــة الوسطى:
تاريخ استقرار غامض، وادوار اقتصادية مهمة بالواحات

الملخص بالعربية: يعد اليهود من الأقليات التي استقرت بالمغرب منذ فترة بعيدة، وشكلت جزءا من النسيج المجتمعي المغربي، وكان لها دور بارز في الحياة الاقتصادية، والاجتماعية لهذا البلد، كما ساهمت في إغناء موروثه الثقافي والديني .

وقد كانت مناطق الجنوب المغربي، وخاصة منطقة درعة من المناطق المغربية التي اشتهرت بتواجد هذه الأقلية. لكن بعد قرون من الاستقرار بالمنطقة، حصلت تحولات سياسية واجتماعية هزت العالم خلال القرن العشرين، وكان لها تأثير على اليهود المغاربة الذين هاجروا نحو "إسرائيل" تاركين وراءهم تاريخا طويلا تشهد عليه الملاحات المهجورة، والمقابر المسورة بالمنطقة .

على طول هذه الفترة الطويلة عاش اليهود مجموعة من الأحداث المتمثلة في الصراع مع الكوشين وبعدهم المسيحين واستطاعوا فرض سيطرتهم على المنطقة، قبل أن يدخلها المسلمين ويصبحون في وضعية أهل الذمة. عندها أصبح اليهود أكبر التجار بالمنطقة واحتكروا مختلف المهن والحرف، وامتلكوا الأراضي وبذلك كانوا عصب الاقتصاد وأساسه بهذه الأرجاء. أما اجتماعيا فقد كانت تربطهم علاقات طيبة مع باقي المجموعات من المسلمين رغم وجود حي خاص بهم، أما كبارهم فكانوا يستشارون في قضايا القصر الذي يقطنوه. ونتيجة للأوضاع الاقتصادية المزرية في الثلاثينات والأربعينات، وتركز النشاط الاقتصادي بالمدن بدا يهود درعة في الهجرة نحو المدن الداخلية، ومع ظهور الحركة الصهيونية و"دولة إسرائيل" تغير اتجاه الهجرة نحو أوربا وغالبا نحو هذا الكيان المحتل، نتيجة لنجاح الدعاية الصهيونية، وتغاضي السلطات الاستعمارية، ومع بداية الستينات من القرن العشرين أمست ملاحات الجنوب خالية تماما من يهودها

كلمات مفتاحية: اليهود – الأقليات الدينية- الملاح - واحات درعة الوسطى

Abstract : their settlement in the regions there were many political and social developments that marked the world. These developments had an impact on the Moroccan Jewish community who had decided to emigrate to Israel leaving behind a long history that the abandoned Mellahs (Jewish neighborhoods) and the walled Jewish cemeteries still witness.

Along this long era, the Jews lived many events such as their struggle against the Kushites and later against the Christians. The latter succeeded in controlling the region until the Muslim came and made them in the position of 'the people of the D'himma (non-Muslims with legal protection). At this period, the Jews had become the biggest traders and monopolized various professions and handicrafts in the area. They were also landowners; thus, they were the backbone and foundation of the economy. Socially, they had good relations with other Muslim groups despite the existence of their own neighborhood, and their elderly were consulted on the issues of the 'Ksar'.

As a result of the dire economic situation in the 1930s and 1940s, the concentration of economic activity in the cities, Jews starter a migration to the inner cities. And with the emergence of the Zionist movement and the "State of Israel", the trend of migration shifted towards Europe and mostly towards this occupied entity. This was due to the success of the Zionist propaganda and the disregard of the colonial authorities. By the beginning of the 1960s the south regions' 'Mellahs' (Jewish neighborhoods) became completely free of their Jews.

Key Words: Jewish community , religious minorities , Mellah , Central Daraa Oases

مقدمة

يعتبر اليهود بدرعة الوسطى[1] من المجموعات الأولى التي استقرت لمدة طويلة من الزمن بهذه المنطقة، وتعد من أقدم سكانها لكنها لم تنل نصيبا كافيا من الدراسة، وبقي تاريخ اليهود تاريخا هامشيا ومهمشا، وغامضا كما هو حال منطقة درعة لاعتبارات دينية، أو سياسية، أو بسبب نقص المعطيات. ومن خلال هذه المقالة البسيطة سنحاول تجاوز هذه الاعتبارات، والخوض في الموضوع رغبة في كسر الطوق، عن هذا المكون كجزء لا يتجزأ من الشعب المغربي، ومن تاريخ المنطقة بشكل خاص.

ورغم النظرة الدونية السائدة عند أغلبية الأجيال الحالية من سكان المنطقة، والتحفظ على ذكر اليهود/أوداين[2] كقول "اليهود حشاك" أو سب "سير آ ليهودي" أو الضرب على الحائط والحصير أحيانا عند ذكر اليهود، فإن علاقة اليهود مع السكان الذين عايشوهم كانت جيدة حسب رواية كل الأشخاص الذين قابلناهم. ونعتقد أن النظرة الاحتقارية تجد أساسها أحيانا من كون "اليهود من أهل الذمة" وأن دينهم خاطئ مقارنة بالإسلام. وقد تغذى هذا الفهم الخاطئ والحقد على اليهود وليس الصهيونية نتيجة الصراع العربي الإسرائيلي. وما نحاول أن نبينه هو أن اليهود من أقدم المجموعات التي عمرت درعة و المغرب وقد سبق تواجدهم المسلمين والعرب، والأكثر من ذلك فقد تساكنوا وتعاملوا مع الساكنة الدرعية (المجموعات الأخرى) بنوع من التعايش و الاحترام، وخطوا بذلك جزء من تاريخ المغرب و المنطقة يجب معرفته ودراسته ضدا على الرؤى الاقصائية والقومية المقيتة التي تخلط بين ما هو يهودي وما هو صهيوني .

فكيف وصل اليهود إلى منطقة درعة، ومتى تم ذلك؟ ما الوضعية الاقتصادية والاجتماعية لليهود بالمنطقة؟

وسنحاول معالجة الموضوع عبر المحاور الآتية:

- إشكالية التأريخ : بدايات استقرار اليهود بدرعة
- الصراع اليهودي المسيحي من أجل السيطرة على درعة في القرون الميلادية الأولى
- المكانة الاقتصادية (المهن والحرف)

I. اليهود بدرعة : من الاستقرار إلى حدود سيطرة المرابطين على المنطقة

1 – وصول اليهود إلى درعة : بين الواقعي والافتراضي

تتضارب الروايات وتختلف في تحديد فترة قدوم اليهود إلى هذه المنطقة، وافترق المؤرخين في تحديد تاريخ مضبوط ومحدد لدخول اليهود إلى المغرب عامة، ودرعة على الخصوص. حيث

ذهب البعض إلى أن التواجد اليهودي يعود إلى ما قبل الميلاد وأن اليهود جاؤوا إلى المغرب منذ فترة قديمة "عندما أرسل الملك سليمان اليهود للبحث عن مناطق إنتاج الذهب"، وهناك دليل أخر حسب نفس الرواية يبين قدم استقرار اليهود بالمغرب بإقدام داوود والجنرال يوآب/Johab بملاحقة بربر فلسطين حتى أعماق الصحراء حيث اكتشف في إحدى المدن الداخلية بالمغرب حجرة كبيرة كتب عليها" إلى هنا لاحق يوآب البربر" وهذه المدينة تسمى حجر سليمان[3]

وهناك افتراض آخر حول دخول اليهود إلى المغرب يذهب صاحبه إلى أن اليهود بعدما تم طردهم من طرف نبوخندنصر، فرُّوا إلى أبعد نقطة في الصحراء إلى نقطة لن يصل إليهم فيها بطش البابليين ومن الذين دافعوا عن هذا الرأي روبير آتال الذي حدد "فترة تواجد اليهود بالمغرب الشرقي حوالي 586 ق.م عندما أرغم Nabaichodnnsor الثاني اليهود على مغادرة المشرق أثناء تحطيم معبد القدس 583 ق.م"[4]. في حين تحدث دنيال شروتر عن وصول المستوطنين اليهود في حدود الفترة الممتدة من القرن الثامن قبل الميلاد، حيث وقع ترحيل أسباط إسرائيل العشرة من قبل الآشوريين إلى سنة 587 قبل الميلاد تاريخ غزو أورشليم (القدس) وتدمير الهيكل الأول. ويعتقد بناء على ما هو وارد في الروايات التقليدية، أن أول المستوطنين اليهود في إفران بالأطلس الصغير(...) ينحدرون من اليهود النازحين الفارين من فلسطين زمن تخريب المعبد (587 قبل الميلاد) . وقد عبروا مصر، ثم وصلوا في نهاية المطاف إلى منطقة الأطلس الصغير في 361 قبل الميلاد "[5] أما فلامان فيعتبر اليهود من أول المجموعات التي استوطنت درعة، وقد قدموا من فلسطين بعد تهديم المعبد سنة 70قبل الميلاد أو قبل ذلك[6] والمقصود تحطيم الهيكل على يد الرومان، غير أن إضافة "أو قبل ذلك" تبين أن السيد فلامان ليس لديه تاريخ محدد.

أما الفرنسيون الآخرون الذين اهتموا بمنطقة درعة وكتبوا عنها فيتفقون على أن اليهود استقروا بهذه المنطقة منذ فترة بعيدة من الزمن ومن بين هؤلاء جورج سبيلمان، بييرآزام، ودو لاشابيل، وجاك مونيي... والاختلاف حول تاريخ محدد، الذي يطال أيضا المناطق التي وصلها اليهود في البداية، والتي استقروا بها. أما السيد أحمد البوزيدي المهتم بتاريخ المنطقة فيرى أن استقرار اليهود بالمنطقة قد يرجع "إلى القرون الأولى الميلادية، وليس في المستبعد أن يرجع استقرار اليهود بشكل مكثف إلى العهود الإسلامية إن لم نقل إلى عصور متأخرة جدا خاصة بعد سقوط الأندلس"[7]

وإن كان المؤرخون والباحثون الذين ذكرناهم أعلاه لا يتفقون على تاريخ مضبوط لدخول اليهود المغرب، فإننا لا نستبعد أن تكون منطقة درعة من المناطق التي فروا إليها كمنطقة بعيدة جدا في عمق الصحراء، وبها أماكن محصنة فوق الجبل، فبعض المؤرخين يؤكدون أن اليهود توغلوا في الداخل بعد هذه الهجرة، ولم يتوقفوا في المناطق الساحلية كفرضية شلوموا الباز الذي يرى أن اليهود استقروا منذ الألفية الأولى قبل المسيح متوغلين في المناطق الداخلية مبتعدين عن السواحل[8]. ونفس الأمر يذهب إليه عطا علي محمد شحاتة ربه بقوله "أما اليهود فاختلطوا أكثر بالبربر البتر اللذين لجؤوا إلى الداخل وهو ما جعل الأمر سهلا في التفريق بين اليهود القدامى، الوافدين منذ القدم ساكني المدن الصغرى في وسط وجنوب المغرب والواحات و القرى الجبلية، و بين اليهود الجدد القادمين من أوربا والذين استوطنوا المدن الساحلية مثل سبتة والمدن الكبرى"[9].

كما أن الدكتور عبد الرحمان بشير يقول على أن " الروايات تشير إلى أن توغل اليهود غربا حتى المغرب الأقصى و خاصة في منطقة درعة التي استوطنها اليهود منذ القدم"[10]، وبناء على ما ذكرناه فإن اليهود الأوائل توغلوا داخل القارة، حيث وجد اليهود في بلاد الشمال الإفريقي مبتغاهم، فهي آخر اليابس غربا آنذاك، و هيمنة أصحاب السلطة عليها شكلية، إذا ما ابتعدوا عن الساحل كثيرا، بسبب طبيعتها الجغرافية الجبلية الصحراوية و طبيعة أهلها البدوية وحياتهم القبلية، فتقاطروا على هذه البلاد تباعا فارين من تنكيل أعدائهم، فاختاروا المدن ذات الأهمية التجارية و المناطق الجبلية التي تحقق الأمان وتمتاز بوقوعها على خطوط التجارة .

وتبقى الإشارات حول استقرار اليهود بدرعة هي تلك التي ذكرت ببعض الوثائق التي اكتشفت بمنطقة دادس في بداية القرن العشرين حيث تشير إلى استقرار اليهود منذ 250 قبل الميلاد بعد طردهم على يد نبوخند نصر البابلي[11] .

وبالرغم مما عاشه اليهود في المغرب من تاريخ طويل، فإننا لا نكاد نعرف إلا القليل عن عمليات الاستيطان الأولى في مناطقه المختلفة، التي جاؤوا إليها على شكل موجات متتابعة عبر العصور، لأنه تعوزنا الوثائق و الآثار المكتوبة وتغيب عنا النقوش الصخرية، والتي لا نستطيع من دونها التأريخ لبدايات استقرار اليهود بالمغرب أو تسجيل مناطق الاستقرار، أو تتبع الأصول العرقية لكثير منهم، وهي أصول لا تزال مجهولة تماما[12].

عموما يمكن القول على أن استقرار اليهود بمنطقة درعة يعود إلى فترة تاريخية بعيدة، وأن التواجد اليهودي قديم بدرعة، وغير محددة بتاريخ دقيق، وأنهم استطاعوا التأقلم في هذه المناطق وكانت لهم مكانة اقتصادية واجتماعية مهمة .

2 - الصراع اليهودي/المسيحي من أجل السيطرة على درعة

لا تعطينا المادة المصدرية إلا معطيات هزيلة عن وضعية درعة قبل التاريخ، وفي القرون الميلادية الأولى، حيث إن ما ذكر عن هذه الفترة يعتمد أساسا على الروايات الواردة في المخطوطات الإسرائيلية (اليهود) السالفة الذكر. والمصدر المغربي الوحيد الذي أشار إلى وجود اليهود خلال فترات قديمة بالمنطقة هو المكي الناصري الذي يقول في معرض حديثه عن بعض الأحداث المتعلقة بتاريخ المنطقة، وتاريخ اليهود على الخصوص "ووجدت في بعض التقاييد ولا أقطع بصحته ولا نفيه"[13]، وقول الناصري هذا يؤكد عدم تأكده من هذه المعلومات، والتي لم تخرج في مجملها عن الرواية اليهودية، والتي نعتقد أنها كانت سائدة في المنطقة آنذاك، وكان أحبار اليهود وكبارهم يروجونها .

عرفت القرون الأولى من الميلاد حسب هذا المصدر صراعا شرسا حول السيطرة على المنطقة بين اليهود القادمين من فلسطين في عهد سليمان (القرن 10 قبل المسيح) والدرعين المنحدرين من كوش ابن حام ابن نوح[14] والذين تبنوا المسيحية في فترة من الفترات، ليأخذ الصراع طابعا سياسيا ودينيا تطور إلى حروب للسيطرة على المنطقة دام قرونا من الزمن لينتهي بسيطرة اليهود على الكوشيين[15]/الدرعيين في حدود القرن 5 ميلادي[16] في هذه الفترة كان الكوشيين الذين حكموا المنطقة لفترة طويلة يسيطرون على منطقة تازروت، بمنطقة جبل زاكورة وكان لديهم جيش يقدر ب 4000 رجل، في حين أن اليهود بعد استقرارهم بمنعرج درعة وخاصة بمنطقة تيدري عملوا على التمدد في المنطقة و إقامة مناطق أخرى تابعة لهم بالمحاميد، وبجبل مكاك، وبالكتاوة[17] (بني صبيح، بني حيون)، وخاصة بفزواطة[18] حيث تامكروت عاصمة الإمارة.

بعد ذلك دخل اليهود والنوسريم[19] مرحلة من التعايش "وقسموا واد الزيتون على نصفين بعهد الله وميثاقه"[20] القسم الشرقي للنوسريم، والقسم الغربي المعروف بواد الزيتون لليهود، لكن هذا التعايش سرعان ما تحطم نتيجة الهجوم الذي شنه المسيحين على يهود رباط الحجر، فقتلوا بعضهم وفر البعض الآخر إلى تامكروت، وقبل أن يبتعد المعتدين ويجهزوا جيشهم هاجمهم اليهود بزعامة الملك يعقوب وصامويل، فقتلوا منهم أكثر من 1000 فرد[21]. انتهت هذه

المعركة بموت زعيم النوسريم، وفرارهم صوب سجلماسة فتبعهم اليهود (بزعامة يعقوب وصموئيل) فقتلوا 8000 آخرين، وبعد هذه الهزيمة النكراء فر ما تبقى منهم إلى أغمات فتعقبهم اليهود أيضا وقتلوا منهم 4000 آخر، فعاد اليهود إلى درعة، لكن النوسريم فكروا في الهجوم مرة أخرى بعد تجميع قواهم بالمكان المعروف ب les moutagne وأخذ الثأر لكن يعقوب وصاموئيل حاصروهم بمدينة زيتا zeta لأكثر من 7 أشهر فكانت الهزيمة الأخيرة لهم، فانفرد اليهود بزعامة واد درعة لمدة من الزمن، قبل أن تتغير الوضعية مع التدخل الإسلامي .

لم يتمتع اليهود إذن بهذه الوضعية لفترة طويلة من الزمن، حيث سيعرف الوادي كغيره من مناطق المغرب التدخل الإسلامي في القرن السابع الهجري مع موسى ابن نصير699هـ وعقبة ابن نافع 683هـ، لكن المنطقة لم تعرف انتشارا كبيرا للدين خلال هذه الفترة، ولم يترك هؤلاء أي تأثير يذكر على المنطقة[22] الذي اقتصر على أعداد محدودة من الذين قبلوا بدين الإسلام، ولم تقع المنطقة بين يد المسلمين إلا مع الغزو المرابطي والذين يمكن اعتبارهم أول من نشر الإسلام بصفة نهائية بمنطقة درعة[23]. وبعدها أصبح اليهود في وضعية أهل الذمة الذين يؤدون الضريبة مقابل العيش بسلام بين المسلمين الذين أصبحوا أسياد المنطقة، ولم تختلف الأمور كثيرا في ظل حكم الدول المتعاقبة على حكم المغرب .

لقد تعمدنا سرد هذه الأحداث التي سكت عنها كل الذين كتبوا عن المنطقة من المغاربة بدعوى "مغالاتها" وطغيان الطابع الأسطوري عليها[24] وإن كان ذلك صحيحا فعلا فهذا لا يمنع من ذكر هذه الأحداث، و تبيان ثغراتها. إن هذه الوقائع تغطي فترة كبيرة من تاريخ درعة الذي لم تذكر عنه المصادر المغربية و العربية أي شيء، (باستثناء صاحب "طليعة الدعة)، رغم أنه يتقاطع مع الرواية اليهودية الواردة عند كاتفوسي كما ذكرت ذلك السيدة جاك مونيي[25]، وبيير آزام[26]، إلا أنه يتحدث عن تحالف اليهود مع المسلمين اللذين بفضلهم انتصر اليهود وهزموا المسيحين، لكن التناقض في كلام السيد الناصري هو أنه بعد هزيمة النصارى "قطعوا البحر إلى الأندلس ودخل سيدنا عقبة المغرب وقسم المسلمون واليهود واد الزيتون"[27] والمعروف تاريخيا أن الإسلام وصل إلى المغرب مع عقبة ابن نافع وموسى ابن نصير، وليس قبل هذا التاريخ، وأن عدد المسلمين في البداية كان قليلا ولم يرتفع إلا فيما بعد .فمن أين جاء المسلمون الذين ناصروا اليهود؟ ثم كيف حصل التحالف؟ ألم يعمل المسلمين خلال دخولهم للمغرب على مواجهة الرافضين للإسلام ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي تجعل رواية صاحب طليعة الدعة، غير دقيقة في نقل الأخبار التي كانت في الكتابات اليهودية.

إجمالا تعطينا هذه الروايات صورة عن وضعية وادي درعة في السنوات الأولى للميلاد، فهي على الأقل تبين تعاقب الأديان ببلاد الكوشيين الذين تبنوا اليهودية، ثم المسيحية فبعد ذلك الإسلام خاصة مع التدخل المرابطي بالمنطقة، وكذلك المجموعات التي تقطن بلاد درعة (الكوشين– اليهود – المسيحين ...)، لكن كل ما ذكرناه لا يمنعنا من تسجيل مجموعة من الملاحظات على هذه الوثائق وما تحمله من معطيات نجملها في:

1- كونها لم تكتشف إلا في فترات قريبة من الزمن من 1910، واحتوائها على بعض الأسماء العربية ك "واد الزيتون"، "رباط الحجر"... مما دفع التشكيك في معطياتها، والتكهن بكونها لم تكتب إلا في فترات قريبة لا تتجاوز القرون الميلادية الأولى.

2- لا تعطينا أي فكرة عن كيفية التوغل المسيحي بالمنطقة، ومتى تم ذلك، مع العلم أن المغرب لم يعرف انتشار كبير للمسيحية التي بقيت محدودة التأثير. فكيف إذن وصل المسيحيين إلى هذه المناطق البعيدة في الصحراء واستقروا بمنطقة درعة؟

3- أن ما ذكر فيها عن اليهود يأخذ الطابع الأسطوري، والتهويلي على حد تعبير المرحوم أحمد البوزيدي، مما يدفعنا إلى افتراض أن ما كتب فيها يريد أن يثبت قدم الاستقرار اليهودي بالمنطقة، مع العلم أنها تورد كلمات عربية كما ذكر، ولم تظهر إلا في وقت قريب.

4- لا تمكننا هذه المعطيات من رسم صورة واضحة عن اليهود ومناطق استقرارهم الأصلي، والتي تفترض في منطقة تيدري، ثم كيف و متى انتشر هؤلاء في باقي منطقة درعة، حيث يتواجد اليهود بكل الواحات من مزكيطة شمالا إلى المحاميد جنوبا.

5- المناطق التي ذكرتها الوثائق عرفت بمواقعها المحصنة فوق الجبال وبالقرب من الواد، وتشرف على الممرات التجارية مما يدفعنا إلى القبول على الأقل بفكرة استيطان اليهود بمنطقة درعة منذ فترة بعيدة من الزمن ربما في فترات القمع البابلي، أو الروماني، مما أجبر اليهود على الفرار إلى أقصى المناطق وأبعدها حيث لا يصل إليهم فيها بطش الأعداء و جبروتهم وهو ما وجدوه في منعرج درعة البعيد، والحصين والمطل على ممرات التجارة الصحراوية في اتجاه السودان.

6- تواجد اليهود بهذه المناطق وما عندهم من ثقافة تجارية، مكنهم إذن وحتى فترات متأخرة من الزمن من احتكارهم للنشاط التجاري في شقيه التجارة الداخلية والتجارة البعيدة نحو إفريقيا، حيث ممارسة مختلف الحرف، والتبادل في مختلف السلع.

و الخلاصة هي أن اليهود استقروا منذ فترات جد بعيدة وغير محددة وأثروا على بعض سكان المنطقة الذين تبنوا الديانة اليهودية، كما يفترض أنهم تغدو بأعداد أخرى من هجرات في فترات متفرقة إلى المنطقة خاصة مع الاضطهاد الذي تعرض إليه اليهود في مناطق مختلفة من العالم. ونتيجة لذلك تشكلت الطائفة اليهودية التي عمرت واحات درعة إلى حدود هجرتها في الخمسينات و الستينات من القرن الماضي.

II. الأدوار الاقتصادية ليهود درعة

1 - احتكار النشاط التجاري

تجمع كل الوثائق التاريخية على أن اليهود تعاطوا الزراعة والتجارة وممارسة مختلف الحرف في كل المناطق التي تواجدوا بها، ودرعة لم تخرج بدورها عن هذا الإطار ويشير عبد الرحمان بشير إلى أن تحولا مهما حدث في تاريخ اليهود مرتبط بطردهم من فلسطين، وشتاتهم في بقاع مختلفة من العالم حيث "أسهم الشتات اليهودي في تحول المهاجرين اليهود من الزراعة إلى التجارة والحرف"[28] وهذا لا يعني أن اليهود تخلوا بشكل نهائي عن الزراعة، وإنما أصبحوا يتعاطون أكثر للتجارة وممارسة الحرف إذ تعتلي التجارة منصة المهن التي اشتغل بها اليهود، و كان الشتات من أهم الأسباب التي أدت إلى تفضيلهم هذه المهنة، إذ لم يعد لهم وطن يرتاحون فيه ويأمنون إليه، ومن ثم حرصوا على أن تكون أموالهم سائلة، كما أسفر عن تكوين سلسلة من التجمعات اليهودية تمركزت على طرق التجارة الكبيرة، ومن ثم أصبحوا تجارا بالضرورة[29]. و يهود درعة لم يكونوا استثناء بل تعاطوا " التجارة، و خاصة أن المنطقة محطة من محطات الذهب الآتي من السودان، ناهيك عن أسواقها المتعددة، التي صدرت إلى جميع البلدان إنتاجها من الحناء و بذورها، وكذلك النسيج، فضلا عن معدن الفضة الذي يستخرج من أراضيها[30]. يقول صاحب "طليعة الدعة" عن بلاد درعة وكل تجارها يهود[31]، كما أن جل الشهادات الحية التي استجوبناها[32] حول اليهود كانوا يقرون بممارسة اليهود للتجارة في جميع المواد و كانوا معروفين جدا كعطارين يجوبون الدواوير إما على ظهر الدواب، أو مشيا على الأقدام لعرض بضاعتهم وإيصالها إلى الزبائن، كما كانوا أهم التجار بالأسواق الأسبوعية التي تعقد على طول الأسبوع بالمنطقة إلى يوم مغادرتهم لها، واحتكروا أغلب المحلات بأسواق المراكز الجديدة التي أحدثها التدخل الفرنسي، كما هو الحال بأكدز، زاكورة، تاكونيت ... ويبدو أن كثرة الأسواق الأسبوعية أسهمت في ازدهار الأنشطة التجارية لليهود بالمنطقة مما جعلهم يسيطرون على التجارة المحلية[33].

وقد حفظت لنا الذاكرة المحلية أسماء عدد من العطارة اليهود يمكن أن نذكر من بينهم بخا من بني صبيح، و العطار شلومو الذي كان يحمل على كتفيه ما يسمى" أعديل" وهو الكيس الذي يحوي بضاعته، ويقول بعامية مغربية ممزوجة بلكنة عبرية" ها لحانوت ألالة" وقد كانت هذه التجارة الصغيرة ترتكز على المتاجرة في بعض المواد خفيفة الوزن و غالية الثمن، وهي ترتبط أساسا بمواد الزينة الخاصة بالنساء كالزعفران و الغاسول والحلي .... يبادلها العطار مقابل بعض المواد الفلاحية، وغالبا ما يتعامل التجار في هذه التجارة مع النساء[34]. وقد ورث الكثير من أبناء المنطقة هذه التجارة عن اليهود، وحاولوا تعويضهم والاستفادة من خبرتهم في هذا المجال .

2 – العمل الحرفي

يظهر أن بلاد المغرب عرفت نمو هذه الشريحة من طبقة الحرفيين منذ القدم، وقد تحدثت العديد من المصادر عن الصنائع اليهودية، مثل الحدادة و صناعة السروج و الخرازة والصباغة و الدباغة وغيرها"[35].

و يهود درعة بدورهم أتقنوا هذه الحرف وغيرها كصنع حذوة الدواب، وثقب الأذن والرباطة[36]، وأغلب هذه المهن والحرف في نظر دوفوكو يتعاطاها اليهود الفقراء عكس الأغنياء الذين يتعاطون الربا والتجارة حيث يقول: يمارس اليهود الفقراء عدة حرف، فهم صانعوا مجوهرات وإسكافيون على الخصوص وصرافون و خدام المنازل في الملاح. أما اليهود الأغنياء فهم تجار ويتعاطون إلى الربا خاصة[37] ولقد ساهم في انتعاش صياغة الفضة في المنطقة كون " درعة غنية به" كما هو حال ازدهار الصباغة و الدباغة نظرا لانتشار زراعة النيلج وشجر التاكوت أما الحرف الأخرى فكلها تنسجم مع اختصاص اليهود و حاجات المنطقة إليها .

وإلى جانب الدباغة والصياغة اشتغل اليهود بعدد من الحرف الأخرى كصناعة "الحلسان"[38]، وصناعة الأفرشة المنزلية و بعض الصنع و الحرف اليدوية الأخرى . والجدول يوضح بعض الحرف التي مارسها يهود واحات درعة الوسطى

الجدول رقم 1 : بعض الحرف والأنشطة التجارية التي مارسها اليهود بواحات درعة الوسطى

الواحة	القصر أو المركز	أسماء الحرفيين اليهود	المهام المزاولة

ترناتة	العروميات	- البرنيط - بالو - موشي بخا - أيت الحزان	التجارة بيع الكتان بالجملة والتقسيط -عطار الدباغة
فزواطة	أمزرو	- عكو - هدو - بريكوس الناموسي - دودو - يهودا	- تجارة الكتان - النقرة - برادعي - التجارة - التجارة - خراز
كتاوة	- بني صبيح	الحزان يعقوب بخا كوجوط - دودو - هنا موشي - شليمو - لا هو بنستي - موشي حييم	- تاجر - تاجر - سكاك - صائغ الدملج - برادعي - رباط -رباط

المصدر : الرواية الشفوية[39] (2017-2019)

3 - ممارسة الفلاحة

اشتهر اليهود على طول خريطة المغرب بممارسة التجارة والحرف، ولم يعرف عنهم تعاطي الفلاحة بشكل كبير. لكن "درعة التي سكنها اليهود منذ القدم، فقد امتلكوا فيها أراضي منزرعة بالزيتون واشتهرت بزراعة الكمون و الكروب والنيلج والحناء، واختصت بالصباغة و الدباغة مما حتم عليهم الاشتراك في فلاحة الأراضي وزراعتها للحصول على المواد الأولية لهاتين الصناعتين وهما النيلج و التاكوت"[40].

وقد أورد فلامان معطيات تشير إلى أن يهود منطقة لكتاوة، ومحاميد الغزلان بدرعة الوسطى، كانت لهم بعض الأراضي الفلاحية، وكانوا يملكون حوالي عشر الأراضي الفلاحية المسقية وحوالي 5000 نخلة في لكتاوة، و15000 بمحاميد الغزلان، وقد كان حزان بني صبيح يملك لوحده ما بين 900الى 1200 نخلة، كل واحدة تباع ب 1500 و 300 فرنك سنة 1951[41].

وخلال زيارتنا لبعض القصور التي كان يقطنها اليهود فإن كبار السن يعرفون جيدا الأراضي و الحقول التي كانت إلى فترة غير بعيدة في ملك اليهود، ولازالت الطبونمية المكانية شاهدة على ذلك، فهناك حقول تعرف بأسماء أصحابها من اليهود اللذين باعوها قبل مغادرة المنطقة، منها: قصر بني صبيح: جنان يحي موشي – بحيرة ابراها . بحيرة لاهو– حبل (حقل) مير ...

يورد السيد فلامان وثيقة[42] عبارة عن عقد بيع لقطعة أرضية "بحيرة" يعود تاريخه لسنة 1714م، بواحة لمحاميد وقد عقد العقد بقصر بني صبيح ويؤكد امتلاك اليهود للأراضي بوادي درعة، وليس كما يزعم البعض أن اليهود يمارسون الحرف والتجارة فقط ولا علاقة لهم بالفلاحة .

كما استطعنا الحصول على بضعة عقود تثبت ملكية اليهود للأراضي الفلاحية والتي لم تكن تقتصر على المناطق التي يتواجدون بها فقط (اي التي توجد بها ملاحاتهم)، بل تشمل دواوير مجاورة، كما هو الحال بواحة لكتاوة بقصر خسوان، قصر البليدة، وخاصة قصر أولاد يوسف وهي في غالبها ترجع الى ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، وهذا نموذج منها :

اشترى بحول الله وقوته الذمي هذ بن بخ من يهود بني حيون من البائع له إبراهيم بن مح الأهبل السفولي من آيت ببغف والمبيع ثلاثة قوالب من التراب البيض ....[43] فيها من لعلف المرهون له المنسوب له والمعلوم إليه في غابة أولاد يوسف المسمى عندهم براط يحدها شرقا مجرى الماء وجنوبا وجوفا بها الى البائع وغربا كذلك وقبلة الموثقين كذلك بجميع المنافع والمر افق والحرم والصرف وكافة الحقوق ....اشتراء صحيحا قاطعا جائزا ناجزا منا ...لم يتصل به كإشرط يفسده .....بثمن معلوم غير مجهول قدره ونهايته خمسة عشر ريالات وكذا انقطع ذلك من دينه الذي له قبل غريمه المبيع عنه المذكور و أبراه من قبوضه إبراء تاما وخلص بذلك للمشتري تملك ما اشتراه خلوصا تاما على السنة في ذلك والمرجع بالدرك بعد التسويف والتدليل ثلاث جمعات متوليات ووفق الثمن على المشتري المذكور دون زائد شهد عليهما بما فيه عنه بأتمه وهو فحال الصحة والطوع والجواز وبتاريخ أو ائل المحرم الحرام عام 1354 عبيد ربه تعلى على بن عبد الموجود اليوسفي لطف الله به آمين

لقد كان اليهود يستغلون أوقات الشدة، والجفاف للحصول على الأراضي بأثمان بخسة، أو عن طريق الرهن حيث يضع السكان ملكيتهم في يد اليهود مقابل الحصول على بعض المال، أو الحبوب، وحتى الأطعمة ، وعند العجز عن رد الدين تصبح الملكية في يد اليهود.

والملاحظ أن اليهود كان لهم حق الملكية كغيرهم، من المجموعات الأخرى ولم يوجد أي قانون عرفي يمنع عليهم حق التملك، وملكوا الأراضي بشكل دائم وهو ما يظهر من ملكية الحزان ببني صبيح الذي راكم ذلك القدر من أشجار النخيل وعرف بثرائه الكبير، وهم بذلك يختلفون عن يهود بعض المناطق الأخرى اللذين كان لهم الحق في ملكية دائمة للأراضي داخل الملاح فقط، أما غيرها من الأراضي التي تشترى من قبل اليهود خارج الملاح فهي خاضعة للتحديد الزمني[44] .

أما فيما يتعلق بمزاولة الأعمال الفلاحية فإن اليهود " كانوا يستغلون أراضيهم الفلاحية إما بطريقة مباشرة، حيث يقوم الفلاح اليهودي باستغلال أرضه بنفسه والاستعانة بأفراد عائلته، أو بطرق غير مباشرة عن طريق "الخماسين"[45] أو بواسطة الاستغلال بالشراكة " تشرعت "[46].

إن تعاطي اليهود للفلاحة بمنطقة درعة الوسطى، عكس مناطق أخرى "يعكس إنسجام اليهود الدرعيين حتى حدود النصف الثاني من القرن العشرين، مع مختلف الأنشطة الاقتصادية التي توفرها ظروف المجال، الطبيعية و المناخية[47].

إجمالا يمكن القول على أن يهود واحات الجنوب المغربي، وخاصة يهود درعة الوسطى يعتبرون من أقدم المجموعات التي عمرت وادي درعة واستقرت به، وإن كنا لا نملك تاريخ محدد ودقيق على ذلك، وأن ما كتب مع ذلك يبقى افتراضيا . وكان لها دور مهم في الحياة الاقتصادية

خاتمة

يظهر أن اليهود استقروا بمنطقة درعة منذ فترة بعيدة، وغير محددة، الا أننا لا نملك دلائل قطعية على ذلك، وكل ما طرح في هذا الصدد يبقى افتراضيا، لكن التواجد اليهودي بدا واضحا من الدور الأساسي الذي لعبه هؤلاء في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرعة الوسطى، بتعاطيهم لمختلف المهن والحرف، وتحكمهم في النشاط التجاري، زيادة على امتلاك الأراضي وهو مالم يكون معروفا عنهم بمناطق أخرى من البلاد .

وبهجرتهم فقدت المنطقة مكونا هاما من مكوناتها شكل جزءا من تاريخها، وترك فراغا في الحياة الاقتصادية لم يتم تعويضه بسهولة، ولم يبقى من هذا التاريخ اليوم سوى دور مهجورة ببعض الملاحات التي أصبح أغلبها يسكنه المسلمون، وكذلك مقابر مسورة وأسماء تحفظها ذاكرة المسنين الشاهدة على التعايش والتساكن بين اليهود وغيرهم من المجموعات الأخرى .

الهوامش :

[1] اسم يطلق على المنطقة التي تمتد من أكدز شمالا إلى امحاميد الغزلان في أقصى الجنوب، تشمل ست واحات تنتظم من الشمال الى الجنوب على الشكل التالي : واحة مزكيطة، واحة تنزولين، واحة ترناتة، واحة فزواطة، واحة كتاوة، ثم واحة امحاميد الغزلان .

[2] كلمة أمازيغية تعني يهود

[3] Pierre Azam , **les cites rurales du Ktaoua** , mémoire dactylographie, Documents du Centre des Hautes études administratives sur l'Afrique et l' Asie modernes université de paris,1946, p52

[4] R. attal,. **Decarthage a jerusalem la commuanté juive de Tunis**, p 17,p18 نقلا عن عبد الله ازيكي، **مسألة اليهود المغاربة**، منشورات اختلاف، عدد20، الطبعة الأولى 2004، ص 13

[5] عمر بوم، **يهود المغرب وحديث الذاكرة**، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلو الانسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم : 18، الطبعة الأولى، 2015، الرباط، ص،171

[6] Flamand, **les israélites du sud Marocain, Documentes du Centre des Hautes Etudes Administratives sur l'Afrique et l'Asie modernes Université de Paris, numéro, 2 133**,p23

[77] أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن17 مطلع القرن العشرين دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال وثائق محلية** ،آفاق، 1994، ص 45

[8] Shlomo elbaz, **interférences culturelles judéo berbère** 83

[9] عطا علي محمد شحاتة ريه ، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى، في عهد المرنيين والوطاسين**، دار الكلمة، الطبعة الأولى 1999،ص،28

[10] عبد الرحمان بشير ،**اليهود في المغرب العربي:22-462هـ/642-1070م**،عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، 2001، ص 56

[11] Jacob Moise Toledano, Extrait de : la lumière Maghreb , histoire des israélites du Maroc dans ,Pierre Azam, les cites rurales du ktaoua, p 53

[12] عمر آفا ،**اليهود في منطقة سوس دورهم الاقتصادي وعلاقتهم بالصويرة**، ضمن كتاب "تاريخ المغرب المعاصر دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد" منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، سلسلة بحوث ودراسات رقم : 34،الرباط، ص 187

[13] المكي الناصري ،**طليعة الدعة في أخبار وادي درعة**، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم د 3786 ، ص،4

[14] Jaque Meunier, **Le Maroc saharien dès origines à 1970**, Paris,1982,p61

[15] اسم يطلق على المجموعات السوداء والخلاسية من ساكنة درعة، اللذين يعتقد بانتسابهم الى كوش ابن حام ابن نوح

[16] ibidem

[17] واحة توجد في جنوب درعة الأوسط، وتحدها المحاميد جنوبا ، وفزواطة شمالا .

[18] من واحات درعة الستة، توجد في الوسط تحدها لكتاوة من الجنوب، وترناتة من الشمال

[19] اسم تطلقه الكتابات على المسيحيين القادمين عبر البحر، وهم بربر بيض حسب جاك موني، المرجع المذكور أعلاه، ص 183 . لكن للأسف لم نجد اي معلومات عن هؤلاء، وكيف وصلوا إلى درعة، ولا توجد أي دلائل على وجودهم ، بإستثناء ما يفترض حول كونهم عمرو تين زيطا، والعروميات .

[20] المكي الناصري ،**مصدر سابق** ص،6

[21] Jacob Moise Toledano, Extrait de : la lumière Maghreb , histoire des israélites du maroc dans ,Pierre Azam, les cites rurales du ktaoua p 53

[22] Pierre Azam, ,op. cit, p 4

[23] Ibid,p5

[24] أحمد البوزيدي، مرجع سابق، ص 45

[25] J.Meunie , op. cit, pp,176, 188

[26] Pierre Azam ,op.cit, p 53

[27] المكي الناصري، مصدر سابق، ص 5

[28] عبد الرحمان بشير، مرجع سابق ، ص 86

[29] نفسه ، ص 90

[30] نفسه، ص 103

[31] المكي الناصري ،مصدر سابق، ص 5

[32] من الأشخاص اللذين استفدنا من رواياتهم مشكورين الراضي محمد من قصر امزرو(75سنة)، وحمي صمود من قصر بني صبيح (99 سنة)،مبارك النقية (95سنة)من قصر العروميات، مستقر حاليا بدرب الشريف البيضاء

[33] عبد الالاه حميد، **اليهود و النشاط الاقتصادي بواد درعة خلال القرن العشرين إسهام متعدد المستويات**، ورد في مجلة أمل . العدد 43. من تاريخ الاقتصاد بالمغرب، مظاهر و قضايا ، ص 107

[34] نفسه، نفس الصفحة

[35] حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس و المغرب** 1 ، ترجمة أحمد شحلان، مرسم الرباط،، ص 45

[36] رباط : هو الشخص الذي يقوم باصلاح أواني الفخار، كالقدور وربط المكسرة منها بواسطة أسلاك واصلاح شقوقها

[37] شارل دوفوكو ،**التعرف على المغرب**، ترجمة المختار بلعربي، إفريقيا الشرق، 2015 ،ص 276

[38] المقصود بها البردعة وهي حسب المعجم الغني جمع برادع : بردعة الدابة: غطاء كثيف محشو يوضع على ظهر الدابة . وفي معجم المعاني الجامع بردعة(اسم) الجمع : بردعات وبرادع . البردعة : مايوضع على الحمار أو البغل، ليركب عليه، كالسرج للفرس . الموقع الالكتروني : https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/

[39] من الأشخاص اللذين استفدنا من رواياتهم مشكورين الراضي محمد من قصر امزرو(75سنة)، وحمي صمود من قصر بني صبيح (99 سنة)،مبارك النقية (95)من قصر العروميات، مستقر حاليا بدرب الشريف البيضاء

[40] عبد الرحمان بشير، مرجع سابق، ص 94-ص 95

[41] Flamand, op.cit,p52,p53

[42] Flamand, op.cit, p158,159

[43] ...كلمة غير مقروءة في النص الأصلي

[44] عبد الله الغمائد، **يهود منطقة سوس 1860-1960، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2016، ص321

[45] الخماس أي الشخص الذي يعمل في الفلاحة مقابل خمس المحصول اي ان السيد مالك الأرض يقتطع جزء من المحصول غالبا الخمس او الثلث للفلاح مقابل أعماله . حيث يعطي صاحب الارض البذور والدواب والادوات بينما على الخماس الحرث والسقي والحصاد، وجني التمور وتنقية الحقل ومراقبته،....

[46] عبد الالاه حميد ، مرجع سابق، ص112.

[47] نفسه، ص 112.

لائحة المصادروالمراجع

مخطوط

1.المكي الناصري، **طليعة الدعة في أخباروادي درعة**، مخطوط المكتبة الوطنية، رقم د 3786، الرباط

المراجع

1.أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن17 مطلع القرن العشرين دراسة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال وثائق محلية** ، آفاق، 1994

2. حاييم الزعفراني :

- **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب**، ترجمة أحمد شحلان، و ابو العزم، الدار البيضاء، 1987

-**يهود الأندلس و المغرب 1** ، ترجمة أحمد شحلان، مرسم الرباط،،

3.شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب**، ترجمة المختار بلعربي، إفريقيا الشرق

4.عبد الله الغمائد، **يهود منطقة سوس 1860-1960، دراسة في تاريخ المغرب الاجتماعي**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2016

5.عمر بوم، **يهود المغرب وحديث الذاكرة**، ترجمة خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم :18، الطبعة الأولى، 2015، الرباط

6.عطا علي محمد شحاتة ربه، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى، في عهد المرينين والوطاسين**، دار الكلمة، الطبعة الأولى 1999

7.عبد الرحمان بشير، **اليهود في المغرب العربي22-462هـ/642-1070م**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى،2001

8.عمر آفا، **اليهود في منطقة سوس دورهم الاقتصادي وعلاقتهم بالصويرة**، ضمن كتاب "تاريخ المغرب المعاصر دراسات في المصادر والمجتمع والاقتصاد" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ودراسات رقم : 34، الرباط

9. عبد الإلاه حميد ، **اليهود و النشاط الاقتصادي بواد درعة خلال القرن العشرين إسهام متعدد المستويات**، ورد في مجلة أمل ، العدد 43، من تاريخ الاقتصاد بالمغرب، مظاهر و قضايا

10. محمد كنبيب، **يهود المغرب1912-1948**،ترجمة إدريس بنسعيد وتقديم اندري آزولاي، منشورات جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة،13.

1. Flamand, **les israélites du sud Marocain**, Documents du Centre des Hautes études administratives sur l'Afrique et l' Asie, modernes université de paris

2. PIERE AZAM , **les cites rurales du ktaoua**, mémoire dactylographie, Documents du Centre des Hautes études administratives sur l'Afrique et l' Asie modernes université de paris,1946

3. Jaque Meunier , **Le Maroc saharien dès origines à 1970**, 1 vol, Paris, Librairie Klinchsieck,1982.

الملاحق :

ملحق رقم 1 : مقتطف من مخطوط، طليعة الدعة، الصفحة رقم 4

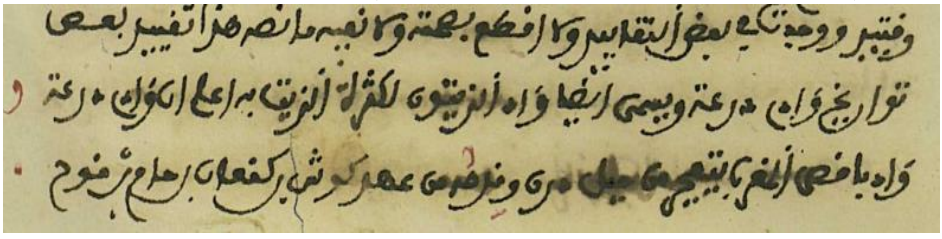

ملحق رقم 2 : مقتطف من مخطوط، طليعة الدعة، ص 5

ملحق رقم 3 : عقد شراء أرض من لدن اليهودي هد بن بخ سنة 1353هـ